سلامة الصدر من الأحقاد

قد اعتبر الإسلام من دلائل الصَّغار وخسة الطبيعة، أن يرسب الغلُّ في أعماق النفس فلا يخرج منها؛ بل يظل يموج في جوانبها كما يموج البركان المكتوم.



الشيخ/ محمد الغزالي

وكثير من أولئك الذين يحتبس الغلُّ في أفئدتهم يتلمَّسون متنفسًا له في وجوه من يقع معهم؛ فلا يستريحون إلا إذا أرْغوْا وأزبدوا؛ وآذوا وأفسدوا، روي عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنبَرِ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِشِرَارِكُمْ؟» قَالُوا: بَلَى، إِنْ شِئْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَإِنَّ شِرَارَكُمُ الَّذِي يَنْزِلُ وَحْدَهُ، وَيَجْلِدُ عَبْدَهُ، وَيَمْنَعُ رِفْدَهُ»، قَالَ: «أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمْ؟» قَالُوا: بَلَى إِنْ شِئْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «مَنْ يُبْغِضُ النَّاسَ وَيُبْغِضُونَهُ»، قَالَ: «أَوَ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمْ؟» قَالُوا: بَلَى إِنْ شِئْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «الَّذِينَ لَا يُقِيلُونَ عَثْرَةً، وَلَا يُقيلون مَعْذِرَةً، وَلَا يَغْفِرُونَ ذَنْبًا»، قَالَ: «أَفَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِك؟» قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «مَنْ لَا يُرْجَى خَيْرُهُ، وَلَا يُؤْمَنُ شَرُّهُ»[1].

والأصناف التي أحصاها هذا الحديث، أمثلة لأطوار الحقد عندما تتضاعف علته، وتفتضح سوأته، ولا غرْو، فمن قديم أحسّ الناس -حتى في جاهليتهم- أن الحقد صفة الطبقات الدنيا من الخلق! وأن ذوي المروءات يتنزهون عنه!

قال عنترة:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرُّتبْ
ولا ينال العلا من طبعه الغضبُ

وهناك رذائل رهَّب الإسلام منها، وليس يفوت النظر القريب أن يعرف مصدرها الدفين.

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم: ١٠٧٧٥.

إنها على اختلاف مظاهرها، تعود إلى عملة واحدة هي الحقد.

فالافتراء على الأبرياء جريمة يدفع إليها الكرْه الشديد، ولما كان أثرها شديدًا في تشويه الحقائق، وجرح المستورين، عدَّها الإسلام من أقبح الزور، روت عائشة أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «أَخْبِرُونِي مَا أَرْبَى الرِّبَا؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّ أَرْبَى الرِّبَا عِنْدَ اللهِ -عَزَّ وَجَلَّ- اسْتِحْلَالُ عِرْضِ الْمُسْلِمِ، ثُمَّ قَرَأَ:

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب: ٥٨)»[٢].

ولا شك أن تلمس العيوب للناس، وإلصاقها بهم عن تعمد يدل على خُبث ودناءة، وقد رتَّب الإسلام عقوبات عاجلة لبعض جرائم الافتراء وما يبيتُ في الآخرة لصنوف الافتراء كلها أشدُّ وأنكى.

قال رسول الله: «مَن ذكر امرأً بشيءٍ ليس فيه ليَعِيبَه به، حبسه اللهُ في نارِ جهنمَ حتى يأتِيَ بنَفاذِ ما قال فيه»[٣].

وفي رواية: «أيُّما رجلٌ أشاعَ على رجلٍ مُسلِمٍ بِكلمةٍ وهُوَ مِنها بَرِيءٌ يَشينُهُ بِها في الدنيا، كان حقًّا على اللهِ أنْ يُذِيبَهُ يومَ القِيامةِ في النارِ حتى يأتِيَ بِنفادِ ما قالَ».

وما دام الذي قاله بهتانًا، فكيف يستطيع أن يثبت عند الله باطلًا؟ وكيف يتنصل من تبعته؟

إن سلامة الصدر تفرض على المؤمن أن يتمنى الخير للناس، إن عجز عن سوْقه إليهم بيده.

أما الذي لا يجد بالناس شرًّا فينتحله لهم انتحالًا، ويُزوره عليهم تزويرًا فهو أفاك صفيق:

قال الله -عز وجل-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النور: ١٩)

ومن فضل الله على العباد: أنه استحبَّ ستر عيوب الخلق، ولو صدَق اتصافهم بها.

وما يجوز لمسلم أن يتشفى بالتشنيع على مسلم، ولو ذكره بما فيه، فصاحب الصدْر السليم يأسى لآلام العباد، ويشتهي لهم العافية، أما التلهي بسرد الفضائح، وكشف الستور، وإبداء العورات، فليس مسلك المسلم الحق.

ومن ثَمَّ حرّم الإسلام الغيبة، إذ هي متنفس حقد مكظوم، وصدر فقير إلى الرحمة والصفاء.

عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟» قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قِيلَ أَفَرَأَيْتَ إِنْ

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان، برقم: ٦٢٨٥.
(٣) رواه الطبراني في معجمه الأوسط، من حديث أبي الدرداء -رضي الله عنه- برقم: ٨٩٣٦.

كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»[٤].

ومن آداب الإسلام التي شرعها لحفظ المودَّات، واتقاء الفرقة، تحريم النميمة، لأنها ذريعة إلى تكدير الصفو وتغيير القلوب.

وقد كان النبي ﷺ ينهى أن يُبلغ عن أصحابه ما يسوؤه، قال:

«لَا يُبَلِّغْنِي أَحَدٌ مِنْكُمْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي شَيْئًا، فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيْكُمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ»[٥].

وعلى من سمع شيئًا من ذلك ألا يوسع الخرق على الراقع، فرب كلمة شر تموت مكانها لو تركت حيث قيلت! ورب كلمة شر سعَّرت الحروب؛ لأن غرًّا نقلها ونَفَخ فيها، فأصبحت شرارة تنتقل بالويلات والخطوب:

قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة نمَّام»[٦]، وفي رواية: «قتات».

قال العلماء: هما بمعنى واحد. وقيل: النمام الذي يكون مع جماعة، يتحدثون فينقل عنهم، والقتات، الذي يتسمع عليهم من حيث لا يشعرون ثم ينمّ.

وروي في الحديث: «إِنَّ النَّمِيمَةَ وَالْحِقْدَ فِي النَّارِ لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ مُسْلِمٍ»[٧].

ومن لوازم الحِقد سوء الظن، وتتبع العورات، واللمز، وتعيير الناس بعاهاتهم، أو خصائصهم البدنية والنفسية.

وقد كره الإسلام ذلك كله كراهية شديدة: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عَلِمَ مِنْ أَخِيهِ سَيِّئَةً، فَسَتَرَهَا سَتَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٨].

وقال: «مَنْ سَتَرَ عَلَى مُؤْمِنٍ عَوْرَةً فَكَأَنَّمَا أَحْيَا مَوْءُودَةً»[٩].

وكثيرًا ما يكون متتبعو العورات لفضحها أشد إجرامًا، وأبعد عن الله قلوبًا من أصحاب السيئات المكتشفة، فإن التربص بالجريمة لنشرها، أقبح من وقوع الجريمة نفسها، وشتان بين شعورين، شعور الغيرة على حرمات الله والرغبة في حمايتها، وشعور البغضاء لعباد الله والرغبة في إذلالهم!

إن الشعور الأول قد يصل بصاحبه إلى القمة، ومع ذلك فهو أبعد ما يكون عن التشفي من الخلق، وانتظار عثراتهم، والشماتة في آلامهم.

(٤) رواه الإمام مسلم في صحيحه، برقم: ٢٥٨٩.
(٥) رواه البزار في مسنده (البحر الزخار) من حديث عبد الله ابن مسعود -رضي الله عنه- برقم: ٢٠٣٨، والبيهقي في السنن الكبرى، برقم: ١٦٦٧٥.
(٦) رواه الإمام مسلم، من حديث حذيفة -رضي الله عنه- برقم: ١٦٨، والرواية التي فيها «قتات» برقم: ١٦٩.
(٧) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- برقم: ٤٦٥٣.
(٨) رواه الإمام أحمد في مسنده، برقم: ١٦٩٦٠، والطبراني في المعجم الكبير، برقم: ٩٦٢.
(٩) رواه الطبراني في المعجم الكبير، برقم: ٧٢٣١، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم: ٩٢٠٦.